خطبة صلاة الجمعة 13/ 11/ 2020 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم في مخالطة الناس)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: 7].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: 31].

وَقالَ تعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:52].

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب يقول: **«أما بعدُ، فإن خيرَ الحديث كتابُ الله، وخيرُ الهدْي هدْيُ محمد، وشرُّ الأمورِ مُحْدَثاتُها، وكلُّ بدْعةٍ ضلالة»**.

قال النووي في شرح مسلم: (قوله "خير الهدي هدي محمد" جاءت الرواية بوجهين؛ الأول: بفتح الهاء وإسكان الدال، ومعناه الطريقة، أي أحسن الطرق طريق محمد، يقال فلان حسن الهدي أي الطريقة والمذهب، والثاني: بضم الهاء وفتح الدال فيهما، ومعناه الدلالة والإرشاد).

وأخرج البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «إنَّ أحسنَ الحديثِ كِتَابُ اللهِ، وأحسنُ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّدٍ ﷺ، وشَرُّ الأمُورِ مُحْدَثاتُها، وإنَّ ما تُوعدونَ لآتٍ، وما أنتُم بمعجزين».

قال ابن منظور: فُلَانٌ حَسَنُ الهَدْيِ هُوَ حُسْنُ الْمَذْهَبِ فِي أُموره كُلِّهَا، وأحسن الهدي هدي محمد أَي أَحسَنُ الطريقِ والهِداية وَالطَّرِيقَةِ وَالنَّحْوِ وَالْهَيْئَةِ، هدي رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم.

أيها الإخوة:

هذه هي الخطبة الرابعة في سلسلةِ خطب عنوانُها: (هَدْيُ رسول الله صلى الله عليه وسلم).

جاءت السلسلة في شهر ربيع لنكثر من الصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولنهتدي بهديه ونتأسى بسنته فننالَ الحظوة بشفاعته صلوات ربي وسلامه عليه.

واعلموا أن الكمال البشري معقود في رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن اهتدى بهديه واستن بسنته وحذى حذوه صلى الله عليه وسلم سار في درب الكمال، وعكسه بعكسه.

تحدثت الخطبة الأولى عن هديه صلى الله عليه وسلم في العبادات الشعائرية، والثانية عن هديه صلى الله عليه وسلم في المعاملات المالية، والثالثة عن هديه صلى الله عليه وسلم في العلاقات الأسرية، وعنوان خطبة اليوم: **هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم في مخالطة الناس.**

أيها الإخوة:

الإنسان اجتماعي بفطرته، ولابد له من مخالطة الناس في عمله ومسجده وحيّه، كما لابد له من اعتزالهم حيناً والخلوةِ بنفسه لعبادة ربه وراحة نفسه وصفاء فكره.

إن كثيراً من الآفات المادية والروحية تلحق المرء من مخالطته الناس كالأذى في المال والنفس والعرض، وكالغيبة والنميمة والحسد والحقد والكذب وغيرها.

وصحيح أن العزلة تريح المرء من كل هذا، ولكن أكثر العلماء فضلوا للمسلم –بعد أن يأخذ حظه من العزلة– أن يحترز ويختلط بالناس، ليعود مريضهم، ويحضر جنائزهم، ويواسي محتاجهم، ويرشد جاهلهم، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويدعو للخير، وينشر الحق والفضيلة، ويعلي كلمة الله، وهو الوجه الذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم – فيما رواه الإمام الترمذي وابن ماجه وغيرهما – : «**المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، أعظم أجراً من المؤمن الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم**» وفي رواية: «**خير**».

وقد بحثت عن هديه صلى الله عليه وسلم في مخالطته الناس فوجدت حديثاً جمع ذلك جعلته مادة خطبة اليوم.

أخرج الترمذي في شمائله والطبراني في معجمه والبيهقي في شعبه عن الحسين رضي الله تعالى عنه قال سألت أبي علياً رضي الله عنه عن مَخْرَجِهِ صلى الله عليه وسلم – أي خروجه للناس ومخالطته لهم- كيف كان يصنع فيه؟

قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخزِن لسانه إلا فيما يعنيه، ويؤلفهم ولا يُنَفِّرهم، ويُكرم كريم كل قوم ويُوَلِّيه عليهم، ويَحذَرُ الناسَ ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد منهم بِشْره وخُلُقَه، ويتفقد أصحابه، ويسأل الناس عما في الناس، ويُحسِّن الحسن ويُقويه، وَيُقَبِّحُ القبيح وَيُوَهِّيه، معتدلَ الأمر غير مختلف، لا يغفُل مخافة أن يغفُلوا أو يميلوا، لكل حال عنده عتاد، لا يقصِّر عن الحق ولا يجاوزه. الذين يلونه من الناس خيارهم، أفضلهم عنده أعمهم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة).

وأستطيع من هذا الحديث أن أقرأ هدي النبي صلى الله عليه وسلم في مخالطته الناس في أربعة بنود:

أولا: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخزِن لسانه إلا فيما يعنيه:

فكم من لفظة جرت عداوة، وكم من كلمة أعقبت ندامة، وكثير من كلام الخلطاء تجري فيه الغيبة والنميمة والوقيعة في أعراض الناس، فضلاً عن الكذب والفحش قال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 114].

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم **«من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه»** [الترمذي]، وفي جامع الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «توفي رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال رجلٌ آخَر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع: أبْشِرْ بالجنة، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: **«ما يدريك؟ لعله تكلَّم بما لا يَعنيه، أو بَخِلَ بما لا يُغْنيه»**.

فمن أراد مخالطة الناس ومجالستهم فليخزِن لسانه إلا فيما يرجو خيره وفيما يعنيه، فإن هذا من هدي النبي صلى الله عليه وسلم في مخالطة الناس، ورحم الله رجلاً قال خيرا فغنم، أو سكت عن سوء فسلم.

ثانيا: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤلف الناس ولا ينفرهم:

فهو صلى الله عليه وسلم يحبب الناس به ويحببهم ببعضهم، يحبب الناس به بكريم عشرته وحسن مقابلته وعذوبة حديثه، فيكرم كريم القوم، ويرحم ضعيفهم، ويتفقد من غاب منهم، ويتحدث بحديثهم من غير أن يقصر عن الحق أو يجاوزه، ويحبب الناس ببعضهم بالإصلاح والتأليف بينهم، فقد سمع يوماً

بخصومة وقعت بين أهل قُباء فقال لأصحابه: «**اذهبوا بنا حتى نُصلِحَ بينهم**» [البخاري ومسلم]، واختصم سيدنا علي مع السيدة فاطمة رضوان الله تعالى عليهما فجاء النبي صلى الله عليه وسلم يتودد لصهره يؤلف بينهما.

أخرج البخاري ومسلم عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بيْت فاطمةَ فلم يجد عليّاً في البيت، فقال: «**أَين ابْنُ عَمِّك؟**» فقالت: كان بيني وبينه شيءٌ، فغاضبني، فخرج، فلم يَقِلْ عندي، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لإنسانٍ: «**انظر أَين هو؟**» فقال: يا رسول الله، هو في المسجد راقدٌ، فجاءه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وهو مضطجع، فوَجْدَ رِدَاءهُ قَدْ سَقَطَ عن ظهره، وخَلَصَ التُّرابُ إلى ظهره، فجعل يُمسَحُ عن ظهره، ويقول: «**اجلس أَبا تراب اجلس أبا تراب**» فكان أحب الأسماء إلى سيدنا علي كرم الله وجهه.

فمن أراد مخالطة الناس فليؤلف بينهم ولا ينفرهم فإن هذا من هدي النبي صلى الله عليه وسلم.

ثالثاً: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحذر الناس، ويقرب إليه خيارهم:

أخرج الشيخان عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**تجدون الناس كإبلٍ مائة، لا يوجد فيها راحلة**» وفي رواية: «**ولا تجد فيها إلا راحلة**» قال ابن الأثير: (الراحلة: هي البعير القويّ على السير والأحمال، وهو الذي يرتحله الإنسان، جملاً كان أو ناقة، والمعنى في قوله: «تجدون الناس كإبل مائةٍ لا يوجد فيها راحلة» أن المرضيَّ المنتجب من الناس – في عزّه وجُوده – كالنجيب من الإبل الذي لا يوجد في كثير من الإبل) فالمؤمن كيس فطن، ليس هو بالخب ولكن الخب لا يخدعه، يقرب إليه خيار الناس ويبتعد عن شرارهم.

ومما يدل على عظيم عقله صلى الله عليه وسلم وسعة فكره أنه كان يحذر الناس الذين لم يجربهم ولم يَخْبُرهم في مهام الأمور، ويحترس منهم، ويقرب إليه الأخيار الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر الباذلين المعروف للناس.

فمن كان مخالطاً الناس فليحذر من لم يختبره منهم من دون أن يطوي عنهم بشره وليقرب منه الأخيار من أهل العلم النافع والعمل الصالح فهذا من هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم في مخالطة الناس.

رابعاً: كان رسول الله صلى الله عليه يحسن الحسن ويقويه ويقبح القبيح ويُوهِّيه:

فمجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما يخالط الناس فيها إعلاء للفضيلة وثناء على القيم النبيلة وامتداح للفعال الحسنة.

وفيها توهية للقبيح من الأفعال وذم للفاحش من الأقوال وإضعاف للسيء من الأحوال.

إذا رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً أذاعه ونشره وأثنى على فاعله.

وإذا رأى قبيحاً ستره ونبه إليه وقال ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا.

وهذا هدي النبي صلى الله عليه وسلم في مخالطة الناس أنه يحسن الحسن ويقويه ويقبح القبيح ويوهيه.

وبعد أيها الإخوة:

هذه أربعة في هدي النبي صلى الله عليه وسلم في مخالطة الناس، وقد كان فيها صلى الله عليه وسلم معتدلاً غير مختلف.

أولا: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخزِن لسانه إلا فيما يعنيه.

ثانيا: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤلف الناس ولا ينفرهم.

ثالثا: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحذر الناس، ويقرب إليه خيارهم.

رابعا: كان رسول الله صلى الله عليه يحسن الحسن ويقويه ويقبح القبيح ويوهيه.

فليحرص أحدنا على حفظ لسانه في المجالس وعلى التأليف بين الناس، ولا يقربن منه إلا الأخيار بعد الاختبار، ولنمدح الفضائل وأهلَها ولنحذر من الرذائل وأهلِها.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56]

والحمد لله رب العالمين